

ايلة وبتراه والانباط

قال ابن خلدون في الجزء الثاني من تاريخه ان خالد بن الوليد قال لعبد المسح اخبرني بما رأيت من الايام " قال رأيت المرأة من الحيرة تضع مكنها على رأسها ثم تخرج حتى تأتي الشام في قرى متصلة وبساتين ملتفة وقد اصحبت اليوم خراباً " . ثم تسمى ابن خلدون عن ذلك بقوله " ان الله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين " كأنه تعالى لا يريد ان يرث الارض عامرة فيهلك اهلها لكي يرثها خراباً

ومن يجيل في بلاد الشام من حدود الحجاز إلى بر الاناطول ومن بحر الروم الى الجزيرة والمراق ويشاهد الخرائب المنتشرة في طول البلاد وعرضها واطلال المدن القديمة والهاكل الفخيمة ويراجع كتب التاريخ ويقف على اخبار مملكة يهوذا واسرائيل وصور وصيداء ودمشق وتدمر وما كان لمن عزة الملك وكثرة الجيوش والاساطيل -- ثم ينظر إلى حال البلاد الآن وما صارت اليه من الانحلال والاضمحلال ويفتش عن ابائها في اميركا واورشليم وجزائر المحيط ومجدان الباقيين فيها لا يبايرون مليونين عدداً وأكثرهم يتبلغ العيش تلبقاً ومدتهم البرية ما يلبوم والبحرية مناشير للشباك -- من يرد ذلك كله يقف وقفة الحيران يسائل كتب التاريخ عن اسبابه ويبحث في شرائع العمران عن دواعيه . واذا كان من ابناء تلك البلاد مثلنا آتت خاتمة المطاف الى التأوه والتحسر والياس والقنوط

اذا خرج السائح من مصر قاصداً الشام يراً بطريق العقبة وجبال الشراة فاول مكان يلقه من حدود الشام العقبة عند طرف اللسان الشرقي من لساني البحر الاحمر . هناك كانت مدينة ايلة وعلى مقربة منها كان مرفأ سفن سليمان الحكيم التي كانت تجلب له البضائع من الهند وشرقي افريقية ذهباً وفضة وصندلاً وحجارة كريمة . امتلك بنو اسرائيل هذه المدينة في ايام داود وتعاث عليها ملوكهم وملوك ارام (الشام) الى ان تغلب عليها رصين ملك ارام قبل المسيح بنحو سبع مئة وخمسين سنة وبقيت فرضة لاسفن الناهبة الى بلاد الهند والآية منها . وتنصر اهلها في بدء النصرانية وصارت مرفأ اسقف وبقيت كذلك الى ان غزا النبي محمد غزوة الاخيرة الى تبوك فاتاه يوحنا بن رؤبة صاحب ايلة فصالحه على الجزية وكتب له كتاباً فبلغت جزيتهم ثلثمائة دينار ثم زاد فيها الخلفاء من بني امية فلما كان عمر بن عبد العزيز لم يأخذ منهم غير ثلثمائة . ومن غاب ذكر هذه المدينة فلم تعد

تذكر في كتب التاريخ الآ نادرًا . ويقال ان الصليبيين اخذوها سنة ١١١٦ لسمح واستردها صلاح الدين الايوبي منهم سنة ١١٦٧

ثم اخذها رينك شاتيلون سنة ١١٨٢ . وذكرها ابو الفدا بعد ذلك فقال " والفتزم وايلة على ذراعين او لسانين من البحر قد طعنا في البر الشمالي وصار بين اللسانين انذ كورين للبر دخلة الى الجنوب في البحر وفي تلك الدخلة الطور وعلى طرف اللسان الشرقي ايلة وعلى طرف اللسان الغربي الفتزم " ثم قال " وايلة كانت مدينة صغيرة وكان بها زرع يسير وهي مدينة اليهود الذين جعل منهم القردة واخذوا في زماننا برج ويه وال من مصر وليس بها مزدرع وكان لها قلعة في البحر فابطلت ونقل الرالي الى البرج في الساحل " . ولم يبق الآن من هذه المدينة الا الاقاض وليس العبدة بها بل برفاها الذي كان فرخة الشام الى الهند وجنوبي افرقية ومقر تجارة واسعة النطاق كثيرة المكاسب جعلت النضة والذهب في اورشليم مثل الحجارة كثيرة فاتقطعت التجارة وخربت المدينة وردم المرفأ وليس في بلاد الشرق كلها من يسأل عن سبب ذلك

وعلى منتصف المسافة بين ايلة وبحيرة لوط قبر هرون وعين موسى حيث يقال ان هرون اخا موسى مات ودفن وان موسى ضرب الصخرة فشقها وخرج الماء منها لسقيا بني اسرائيل . وهناك منفرج بين جبال الشراة فيه آثار مدينة قديمة كانت محط القوافل بين بلاد فارس وبلاد مصر وبين الهند والبحر المتوسط وهي التي سميت في التوراة سالع وسمها اليونان والرومان بترا ولعلها البتراه الواردة في ما ذكره ابن هشام عن غزوة النبي لبيحان حيث قال انه سلك على غراب جبل بناحية المدينة على طريقه الى الشام ثم على مخيض ثم على البتراه . وظن بعضهم انها هي الرقيم التي ذكرها ابو الفداء حيث قال " ومن الاماكن المشهورة بالشام الرقيم وهو بلدة صغيرة بقرب البلقاء وبيوتها كلها منحوتة من الصخر كأنها حجر واحد " . لكن ذلك بعيد لبعدهم البلقاء عن جبال الشراة

ومعنى البتراه باليونانية الصخر او الجندل وهذا معنى سالع اسمها بالبرانية . ومعنى سالع بالبرية الشق في الجبل . ومن الغريب ان منفرج الجبل الذي يوصل به الى اطلالها يسمى الآن شقًا كأنه مرادف لاسمها العبراني

وكانت البتراه الادوميين ثم تغلب عليها النبط جاءوها من العراق العربي وكانوا اهل حضارة وتجارة ولغتهم كالارامية وحروفها كالحروف الكوفية والمظنون ان الحرف الكوفي مشتق منها . وجاء في التواريخ القديمة ان انتيقونس احد قواد الاسكندر المكدوني الذي

توفي سنة ٣٠١ قبل المسيح بعث حملتين على النبط في بتراه بعد ما استولى على سورية وفلسطين
الاولى بقيادة قائد اسمه اثينيوس فهاجم بتراه سنة ٣١٢ قبل المسيح ورجالها غائبون عنها في
سوق عمومية وغنم منها غنيمة وافرة من المر واللبن وخمس مئة وزنة من النضة ولما عاد اهلها
ورأولها محل بهم اتفق ائمة ثمانية آلاف منهم ويئتوه وقتلوا اكثر رجاله . والحملة الثانية
بقيادة ابنه ديمتريوس وبلغ خبره النبط فامتنعوا عليه ولم ينلهم منه مكروه

وذكر سترابو المؤرخ النبط في ايام اغسطس قيصر فقال ان عاصمتهم بتراه وقد
سميت بذلك لان الصغور تحيط بها من كل ناحية وفيها مياه غزيرة لسي بساتينها واكثر
الارض حولها قنار ولا سيما في ما يلي اليهودية وكان تجار الهند والعرب ياتونها ايضا عنهم
وينقلونها من هناك الى العريش وزادت هذه التجارة في ايام الرومان فاخطوا طريقا لها من
ايلة إلى بتراه فدمشق وطريقا اخرى من بتراه الى اورشليم رعسقلان وثور الشام

واقى الفيلسوف اثينادورس صديق سترابو الى بتراه واستوطنها مدة ورأى فيها
كثيرين من الرومانيين وغيرهم من الغريباء وكانوا مستوطنين فيها

وذكرها بلينيوس في القرن الاول المسيحي وقال ان النبط يكون مدينة اسمها بتراه
في وادي اقل من ميلين اتساعا يحيط بها جبال لا تسلك وفيها نهر جاري

اما الذي اكثر من ذكرها وذكر ملوكها فهو يوسف ابن كربون المؤرخ اليهودي
الشهير المعروف يوسيفوس قال في النصل الثالث عشر من الكتاب الثالث عشر من تاريخه
المشهور "بعاديات اليهود" ان الاسكندر ملك اليهود حارب عبيد ملك العرب (سنة ٩٣
قبل المسيح) وكان عبيد قد اقام له كيتا في وعسر المسالك في الجولان فدخل الاسكندر
واديا عميقا هو ورجاله ولم ينج منه الا بشق الاتس

ثم ذكر كيفية استيلاء ملوك النبط على دمشق فقال ان انطيوخس آخر ملوك السلوقيين
قصد الحرث ملك بتراه فابعد الحرث من وجوه اولاء الى حيث تمكته البلاد من متاجزته ثم
انقلب عليه بقتة عشرة آلاف فارس من فرسانه فكاد جنود انطيوخس يولون الادبار ورأى
منهم ذلك فاسرع الى لم شعبيهم وتشديد عزائمهم فاصابته ضربة قضت عليه وتفرق شمل رجاله
بعده وانهمز الذين نجوا منهم الى قرية فانا فاترا جوعا . وكان اهالي دمشق يكرهون
بطليموس فدعوا الحرث ملك العرب وماكوه عليهم

اما الحرث الذي ذكره بولس الرسول فقد قال يوسيفوس ان هيروودس انطياس
(انطيفس) تزوج ابنته ثم اراد تطليقها ليتزوج هيرووديا امرأة اخيه فتركتها وذهبت الى

بيت ابيها ونشبت الحرب بسبب ذلك بين ابيها وهيرودس فدارت الدائرة على هيرودس .
وأمر فيليبوس والي سورية بجاربة الحارث والانتصاص منه بجيش الجيوش وسار بها ثم
بلغه ان مولاه طيباريوس قيصر مات فعدل عن الحملة . والظاهر ان الحارث اغتم الفرصة
حينئذ وغزا دمشق واستولى عليها مدة قصيرة لان استيلاءه عليها حينئذ لم يذكره احد
من المؤرخين

وذكر مؤرخو العرب النبط فقالوا انهم من اهل بابل وجعل بعضهم السريان والنبط امة
واحدة وجعلها بعضهم امةين ولكنهم حسب النبط والكلدان امة واحدة ثم قالوا ان يختصر
ملك بابل "سار الى العرب وقد نظم ما بين ايلة والابلة خيلاً ورجلاً وتسامع العرب بافطار
جزيرتهم واجتمعوا للقائه فهزم عدنان اولاً ثم استلم الباقين ورجع الى بابل وجمع السبايا فارتطم
الانبار ثم خالطهم بمد ذلك التبطة . ومقاد ذلك ان العرب استوطنوا العراق العربي منذ
عهد قديم واختلفوا بالانباط . وهو صحيح نشبت الآثار والتواريخ القديمة . والظاهر ان
عرب العراق كانوا يجرون بين اشور ومصر فانتشروا في بلاد الشام التي كانوا يبرون بها واقاموا
فيها ثم منكوها وصاروا عمالاً للقباصرة ومنهم الحوارث ملوك بتراه . واما الحوارث من عرب
غان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت

لله در عصابة نادتهم يوم كيجلتي في الزمان الاول
اولاد جفنة حول قبر ابيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يشنون حتى ما تهر كلابهم لايسألون عن السواد القبيل

فليسوا ملوك بتراه الاقدمين بل هم من عرب اليمن تفرقوا بسيل العرم الذي حدث ١٠٢ للمسيح
ونزلوا على ما بالشام يقال له غان فسماوا به . وكان في الشام الضجاجة وهم من عرب
العراق فخارهم الفساسة واخذوا البلاد منهم

وخضعت بتراه للرومانيين في عهد تراجنس في اوائل القرن الثاني للمسيح ومماها سكانها
باسم ادريانس اكراماً له وضربروا تقوهم باسمه ثم ذكرت في القرن الرابع واخامس والسادس
وحضر مطرانها جرمانوس في المجمع السلوقي سنة ٣٥٩ . ومطرانها ثيودورس في المجمع الاورشليمي
سنة ٥٣٦ ولم يبق منها الآن الا شي من مدافنها وهياكلها وكلها منحوتة في الصخر على
جاني الوادي وهي من اعجب ما صنعه الناس كما ترى في الصورة المدرجة في صدر هذا
الجزء وهناك آثار مشهدها ومقاعده منحوتة في الصخر فطره نحو ٣٥ متراً وكان يسع نحو
اربعة آلاف نفس

هذه خلاصة وجيزة فمن تاريخ مدينتين من مدائن الشام لم نذكرها للفكاهة ولا لتبحيح الشجابل ليرى ابناء المشرق ان اطراف بلادهم المحسوبة الآن قفاراً ومفاوز كانت غاصة بالسكان وكان فيها مدن ضخمة ترد غارات اليونان والرومان وان ما صلت له منذ مئات من الاعوام تصلح له الآن اذا بذلت الهمة في اعادة العمران اليها

٢٠

النار والسيف في السودان

حكم الخليفة وارصافه

لم يكد الخليفة عبدالله التعايشي يترجح سيفه دست الخلافة حتى التفت الى بيت المال فطرد منه احمد ولد سليمان امينه لانه كان يوزع الاموال على اقارب المهدي بغير حساب ونصب فيه ابراهيم ولد عدلان وهو رجل هام خبير بضروب الكسب فنظم اساليب الدخل والنفقة واكثر الموارد على انواعها وضرب الريالات مازجاً ففتها بالنحاس ولما ابى التجار قبضها تهددم الخليفة باخذ اموالهم وقطع ايديهم وارجلهم من خلاف فتاملوا بها ولكنهم رفعوا اثمان البضائع والخليفة يحسب انهم اطاعوا اوامرهم. وقد علم ولد عدلان هذا كيف يعلى مقامه في عيني الخليفة ويكتسب رضاه وهو انه خصه واقاربه بالنصيب الاكبر مما في بيت المال فبقي مكرماً مسموع الكلمة. ثم لما زاد عنو الخليفة وطغيانه بدرت من ولد عدلان بادرة فاخذها بها وقتله شر قتلة كما سيجي.

وجمع قبائل العرب الآتين معه من الانحاء الغربية وامرهم ان يكونوا عصبه واحده والاّ ظلمهم البرابرة والجمالون وسكان الجزيرة. وجعل يسادر اقرباء المهدي ورجاله والخليفتين الآخرين ويزيد سطوة واستبداداً يوماً فيوماً واذا درى ان الناس انتهبوا الى ذلك ولا موه عليه ولو في بواطنهم ارسل الى الخليفتين بعض الهدايا من الغنائم التي كانت ترد اليه تباعاً كالجوارى والخيول والبغال واوعز الى اقاربه ان يخبروا بذلك في كل مكان حتى يرسخ في النفوس انه كريم مفضل ولا يتهمه احد بسوء

ولما رأى ان تلك الالوف المروقة من سكان السودان لا يمكن ان تقيم على ولائهم طويلاً اذا اشهر ظله او خانه دهره بعث الى قيسه يخبرها على الجيـه اليه ليلكها البلاد التي انتم الله عليه بها وغرضه الباطن ان يستعز بقومه ويأمن بهم غدرات الزمان فجاؤه كلهم وغنموا